ماذا علمتني الحياة ؟ (*)

تأليف الأسقف و . ر . أنج

بقلم الأستاذ علي محمد سرطاوي

تعريف الكاتب :

(ولد عام ١٨٦٠ في مقاطعة يورك شير . اشتغل محاضراً من ١٨٨٦ – ١٩٠٤ في جامعة أكسفورد (كلية هـ ثفورد) . ثم كان قسيساً لإحدى كنائس لندن بضع سنوات ، ثم أستاذاً للاهوت في كلية ماجد ولين كبردج وعين عام ١٩١١ أسقفاً لكنيسة (سنت بول) . ثم ترك الخدمة العامة ١٩٣٤ . ألف ونشر مايزيد على أربعين كتابا ومن بينها كتب قيمة عن الصوفية والمتصوفين) .

ماذا علمتني الحياة ؟ إن سبعة وثمانين عاماً يعيشها المرء كافية لتعليمه شيئاً .

كان ماركوس أوريليوس يقول : إن رجلاً حصيفاً في الأربعين من عمره يرى من الحياة ما يكفي لتعليمه الدور الذي سيمثله على مسرحها . ولعله مصيب في قوله . إن العقل والضمير قد بدآ – إلى حد بعيد – يستيقظان في القرون الوسطى . أحسب أن هذه المقالات لن تكون إلا يوميات مركزة على طراز أصيل ، غير أني ذكرت كل مايمكن قوله عن حياتي في كتابي المسمى (وداعاً أيها الوادي) الذي كتبته للسادة لونجمان عام ١٩٣٤ وذلك حين تخليت عن كرسي المسؤولية في التوجيه الروحي ، وأحسب أن طبعة ذلك الكتاب قد نفدت الآن ، لأن قاذفات الألمان قد دمرت مستودعات الناشرين . وأمل الأمل غير بعيد في إعادة طبع ذلك الكتاب إذا كانت هنالك رغبة في تسجيل حياتي المتواضعة إذ لم يبق شيء يتصل بها غير ما هو محفوظ في سجلات الأكاديمية البريطانية عن تاريخ حياة الأعضاء والذي قد ينشر بناء على رغبتي . لذلك لا أجد مناصاً من الرور من الكرام بما نشر سابقاً عن حياتي وأنا أكتب هذا المقال .

لقد تعلمت شيئاً واحداً بصورة لا تقبل الشك ، ألا أحسن الظن بنفسي كثيراً . وكلما أويت إلى فراشي تمر الحماقات وأعمال الطيش التي تتصل بالنصف الأول من حياتي ، كفلم متصل الحلقات ، أمام عيني تحملق في مكشرة عن أنيابها . يقول الكونت كسرلنج : علينا أن لا نزعج أنفسنا بأمور حدثت قبل خمس عشرة سنة ، غير أنني لا ألقي اللوم عن نفسي . حينما أفكر في الحنان الذي كان يغدقه على أبواي وأهلي ، وبعواطف الصداقة الخالصة التي كان يغمرني بها الأصدقاء ، لا أجد مناصاً من اتهام نفسي بعدم المبالاة ونكران الجميل ، وهو خطأ في حد ذاته جد خطير .

والذي يبدو لي أننا لا نتذكر من مثالبنا غير التي لا وجود لها في أخلاقنا الآن . إن ذاكرتي تكاد تفيض بالحماقات التي لم أصحها من نفسي . وهنالك أسرار يحملها الموت معي إلى القبر وهي مزيج من القسوة والأخطاء والطيش .

هل نحن ملزمون أن نطبق على أعمالنا مبدأ (لا تحكم على نفسك) . قال سنت بول : (لا أستطيع الحكم على نفسي) . وقالت بورشيا : (نحن نطلب الرحمة من الله) . إن الله يغفر لنا الذنوب التي نتوب عنها توبة صادقة وإن كنا لا نغفر لأنفسنا بعض ما اقترفنا من ذنوب .

أتراني أستطيع تذكر المباهج الكثيرة التي مرت بحياة كان التوفيق الظاهري حليفها في الدنيا ؟ كلا . لقد كان نصيبي من أوجاع الحياة أكثر من مباهجها . لقد كان بيت القسيس في القرن التاسع عشر – كبيت القسيس الاسكتلندي – المكان الذي تتركز فيه المثل العليا للخلق والذوق : حياة رتيبة بسيطة تمنى بالعقل كثيراً ؛ لا فقر ولا غناء ؛ صحة وعمل مثمر ، وهي أمور لم يكن لها وجود إلا في بيئة من هذا النوع في ذلك الزمان .

(*) أصدرت مطابع السادة ادهام في لندن عام ١٩٤٨ كتاباً قيما عنوانه (What Life Has taught me) تحدث فيه عشرون من الرجال والنساء ، وهم الصفوة الممتازة من أساطين الفكر في بلاد الانجليز في الوقت الحاضر ، عما تعلموه من الحياة ، وقد ترجمنا لقراء الرسالة المقال الأول في ذلك الكتاب وهو بقلم الأسقف و . ر . أنج

(المترجم)

كان أبي لا عبا مبرزاً في « الكركيت » ، ومبيداً في الكلية التي تخرج منها في أكسفورد ، وأبعد الناس عن الطموح . لقد اكتفى من دنياه أن يكون قسيساً مساعداً لجدي شورتون رئيس الشمامسة حتى بلغ الخامسة والأربعين من عمره . حتى لقد رفض أن يكون مطراناً لأبرشية سلسبوري ذات المكانة الممتازة عن طريق التواضع الرخيص والخمول النفسي . وكانت والدتي امرأة عالية الثقافة تملت في ظلها تعليما مكنني من اجتياز الفحص لدخول كلية ايتون ، بعد دراسة فصل واحد في مدرسة خصوصية ، وكان ترتيبي في ذلك الفحص الثاني . لقد ابتسم الحظ لي في ايتون وتتلمذت على أمهر أستاذ في الآداب الكلاسيكية وهو فرانيس سنت جون تاكاري ابن عم الروائي المعظم .

كانت تلك الفترة هي عصر الدراسات الكلاسيكية الذهبي في ايتون . لقد ارتفعت دراساتنا في تلك الآداب إلى مستوى لم تعرفه جامعة كيمبردج في تاريخها الحافل المجيد ، فحزنا درجات الشرف ، ولكن الحظ لم يداوم ابتسامه تعبس في وجوهنا ونقل أستاذنا المعظم إلى أكسفورد .

لم يكن هنالك مكان لمحاضراتي في كلية (كنج) ولذلك رحت أعلم اليونانية واللاتينية لطلاب ايتون الصغار — ذلك الأمر الذي لم يكن من واجبي . وبعد أربع سنوات مضنية مع أولئك الصغار ، نقلت إلى جامعة أكسفورد محاضراً فبقيت بها خمس عشرة سنة والسيادة ترفرف على رأسي . وحينما أخذ السأم يدب إلى نفسي من حياة الجامعة ، قدم لي صديق القسيس هنسون منزلاً يقع في (وست أند) ، وقد صادف التغير الجديد أسعد حادث في حياتي وهو الزواج .

لست أدري هل من حسن الذوق أن أقول ذلك ؟ لقد طلب مني أن أذكر ما علمتني الحياة ، وهذا الشيء هو أثمن وأروع دروسها . ليس الزواج السعيد هو أحسن ما في حياة البشر ، إنما تعلمت إلى جانب ذلك أن الحب لا يختلف في مقداره وإنما في نوعه بالنسبة لنعم الله علينا . حينما قال سنت جونس : (إن الذي لا يحب لا يعرف الله لأن الله هو المحبة) ، كان يعبر بأبسط الكلمات عن الحقيقة العليا ، وهي أن الحب يقودنا إلى عالم الحقيقة عن أقصر طريق لا يعرفه إلا الذين يحبون .

هنالك يبدو الخالق مجسما في الخير المطلق والصدق والجمال . إن هذه في حد ذاتها ليست في واقع الحياة غير مثل أفلاطونية إنها تخص عالم الروح ولا تصل إليها إلا عن طريق الإيمان ، كما تتراءى لنا الصورة في المرآة على حد تعبير سنت بول . إن الحب هو الجناح القوي الذي يحمل أرواحنا محلقة إلى ملكوت الله . لقد أوضح تلك الحقيقة سنت برنارد كلارفو فيما يتعلق بحب الله ، لكن سنت جونس قال لنا إن الذي لا يحب أخاه وهو يراه لا يستطيع أن يحب الله وهو لا يراه .

كثيراً ما رددت وأنا أبارك زواج فتى وفتاة من على مذبح الكنيسة البيت الثاني من شعر شكسبير : « لا قيمة للروابط الظاهرية في تمكين العلائق الروحية بين زوجين كريمين » . وهو من أروع ما قيل من الشعر .

لست أرى مانعاً من الخوض في هذا الموضوع . ليس الضرر الاجتماعي في انتشار الدعارة بأكثر من التساهل في شأنها التساهل المعيب في طبقات المجتمع العالية التي يُفرض أن تكون نموذجاً للفضيلة في الحياة . لقد تدهور الخلق في الخمسين سنة المنصرمة تدهوراً معيباً يدعو إلى الأسف الشديد .

إن السعادة الثانية لزواج سعيد أساسه الحب هي الأبناء . لقد كان أولادنا الخمسة مصدر سعادة خالصة لنا . مات اثنان من أولادي وهما صغيران ، وتبعتهما ابنتي بعد مرض طويل ، وقد يمزق قلبي موتها فرثيتها بأبيات أعتقد أنها كانت مصدر عزاء وسلوى لقلوب محزونة كثيرة . وتعلم ابني الأصغر في ايتون وفي كلية ماجد ولين من جامعة كيمبردج ، وانتظم في سلك الكهنوت وأحبه الناس كثيراً في يوركشير . وكان ينتظره مستقبل باهر في خدمة الكنيسة . كثيراً ما كنت أردد قول هكتور في إلياذة هوميروس حينما حمل طفله استيانكس بين ذراعيه وهو يقول : « سيقول الناس عنه إنه كان أحسن من أبيه » . لكن الحياة لم تمهله . لقد دفعه الواجب إلى التطوع في قوة الطيران الملكية إبان الحرب العالمية الأخيرة ، وعين مدرباً ، وكان عمله يستوجب أن يطير مع المتمرنين ، وقد اضطرت الطائرة مرة إلى الهبوط ، وتخلص ابني ريشارد منها ، ولكنه حينما حاول إنقاذ رفيقه وتلميذه من الطائرة المحترقة اختنقوا وماتا معاً .

علينا أن نحذر من الآمال الكثيرة في الحياة الأخرى . إننا لا نستطيع تصورها إلا في حدود الزمان والمكان ، ولكن إننا كنا من الذين يؤمنون بأن منقذنا المسيح قد ضمن لنا الحياة الخالدة فإن ذلك كاف لأن ننظر إلى الموت بغير ما يتراءى لنا .

ولعلنا نوافق وليم بن على قوله : (إن الذين يحبون ما وراء الحياة ، لا تستطيع الحياة فصلهم عما يحبون ، وليس في مقدور الموت أن يقتل ما لا يمكن أن يموت ، ولا أن يفرق بين الأرواح التي جمعها الحب في الحياة والتي سيجمعها ملكوت الله فترى نفسها في المرآة الإلهية وتتحدث بأسلوب طليق ...)

لقد عينت عام ١٩٠٧ أستاذاً لكرسي اللاهوت في كمبردج بعد إقامة تقرب من السنوات الثلاث في لندن . كانت حياتي في عملي الجديد رتيبة ، هادئة ، رضية ، وكنت أتمنى أن تستديم حتى نهاية عملي في الخدمة العامة . ولكن التاج بوساطة المستر اسكويث عام ١٩١١ عرض علي منصب مطران كنيسة سنت بول ، وقد رأيت أن اللباقة تقضي علي أن أقبل مسؤولية هذا المنصب الخطير .

ان أذكر هنا كثيراً من الثلاث والعشرين سنة التي قضيتها في هذا المنصب ، لأن ذلك قد استغرق القسم الأعظم من كتابي المشار إليه عن تلك الذكريات . إنني مدين للصحافة بقسم كبير من التوفيق لعظيم ما تلقتني به من الترحيب والتشجيع ... لقد لقيت كتبي رواجاً عظيماً ، ودعيت لألقاء محاضرات لا يبلغها الحصر . قال لي رئيس الوزراء حينما سلمني براءة التعيين : إنه يأمل أن أحيي تقاليد ذلك المنصب الروحي الخطير في كنيسة انجلترا . لقد كانت تمر بخياله ذكريات رواد الكنيسة وبناة مجدها الأولين من طراز كولت ، ودون ، وتلستون ، وملمان ، ومانسل ، وشرك ، واحسب أنني قد سرت على آثارهم كأحسن ما يكون ، ولكن ليس من حق أن احكم على أعمال نفسي . ولا أرى أيضاً ضرورة لذكر الثلاث عشرة سنة التي قضيتها في ريف بركشير بعد اعتزال الخدمة . إن بلوغ الإنسان أرذل العمر تجربة خطيرة من تجارب الحياة . إنني لا أكاد الآن أشعر بأثر أي شيء في عواطفي . تجرى الأيام والشهور والسنون وأنا أحسبني في حلم طويل . لم أجد شيئاً في الحياة يستحق أن يتهالك الناس عليه ، لأن الدنيا بكل ما فيها من متاع وسرور ، ليست إلا خيالا يمر مرور سحابة صيف ، وليس في حياة فانية شيء يستحق أن يرجى ويؤسف عليه . إلا أن في رحمة الله ما يسع بلادي البائسة وأبناء وطني التعبين . إن تراخي رباط الحياة التدريجي من جسدي لا يخيفني كثيراً ، ولن أبكي كما بكى شاعر الحب الأغريقي ممنرامس وتمنى أن يموت في الستين من عمره ؛ وليس كما فعل هوراس الذي كبر في غير أوانه ، وأصبح يحس بفقد مباهج الحياة واحدة بعد الأخرى . لا أريد أن أردد قول تنسون الرزين : (إن السنين التي تجعل من الطايش اتزاناً في الإنسان ، هي التي تأخذ ما تعطي وتترك الظلام في البصيرة والبدين) ...

لعل في استطاعتنا تجنب الإحساس بحالة من هذا النوع في الشيخوخة ، وإن كنا لا نرى رأي السير توماس افرري الذي يريد أن نشعر بشيخوختنا إحساساً تنمى فيه أرواحنا بدلا من الإحساس بضعف أجسادنا ... أستطيع أن أقول إنني لست تعساً ... إن الراحة بعد التعب المرهق أمنية جميلة ، وإذا كنا نؤمن بصدق الديانة المسيحية فعلينا أن نؤمن بقول لويس تلستشب : (ليس للموت وجود) . إن المسيح يقول في الإنجيل الرابع : « إن الذي يعيش ويتبعني فلن يموت أبداً)

(البقية في العدد القادم) **علي محمد سرطاوي**

ظهرت حديثاً

الطبعة الثالثة من الجزء الأول من كتاب :

وحي الرسالة

للأستاذ أحمد حسن الزيات

يطلب من دار الرسالة ومن المكتبات الشهيرة

وثمنه ٤٠ قرشاً عدا أجرة البريد